قراءة في كتاب: الإسلام

تأليف: روجيه غارودي

الناشر: دار عطية، بيروت ١٩٩٧

ترجمة: وجيه أسعد

الصفحات: ١٥٨ صفحة من القطع الصغير

رحلة في كتاب القلب، وفضاءات الفلسفة، وصوارم التاريخ، بكلمات شفافة، كتبها ذهن موضوعي يطوق إلى مستقبل تكسر فيه أصنام «وحدانية السوق»، والمادة والمصالح بفأس (قلب الأديان المشترك) المتمثل في «إسلام البدء».

«الإسلام» لروجيه غارودي كتاب أراده مؤلفه ارتداداً قائماً على ما اعتبره بركان التوترات التاريخية المعاصرة التي يشكل المسلمون محورها الأساسي، بهدف اختصره بعبارة «**فنحن نعتمد على تحليل العظمة الماضية التي عرفها الإسلام باعتباره مبدعاً لمبادرة تاريخية، وتحليل أسباب الانحدار التي أخضعته لاستعمار الأمس، والاستعمار الجديد اليوم. نبحث عن كيف يمكن للإسلام أن يعود فيجد مكانه، في إعادة تنظيم عالم صار فوضى...**».

يشجب غارودي رد فعل العالم الإسلامي المتأرجح بين اتجاهين وكلاهما يزيد المشكلة تعقيداً، الأول محاكاة الغرب والانضمام الفعلي لوحدانية السوق من قبل رجال السلطة التقليدية، والثاني محاكاة الماضي وإدارة الظهر للمستقبل.

ليهتف مسرعاً بما يراه وسيلة أوليّة لذلك، إي بإعادة قراءة القرآن بفكر نقدي تستلخص منه المبادئ الأبدية التي تكوّن القواعد الأساسية لكل مجتمع إنساني حتى لا يقرأ «بعيون موتى».

وهكذا يعود الكاتب مسرعاً لولوج عمق ما توخاه في دراسته، وهو استيلاد العمل من عمق الإيمان العقائدي، مردداً: لا يهمني ما يقوله الإنسان عن عقيدته بل ما تفعله هذه العقيدة فيه. ولا ينسى غارودي اختتام تسويغه بنصيحتنا بأن نعي أن ضعف الأمريكيين كبير، إذ إنهم لا يعيشون – يقول غارودي – إلا إذا فرضوا علينا اقتصاد السوق الذي هو اقتصادهم هم، الاقتصاد الذي يركز ٨٠٪ من ثروات الأرض في أيدي ٢٠٪ من سكانه. ثم يعرض رؤيته بأن النصر لن يكون بالعنف لكن بالخنق الاقتصادي، والسلاح الأول في ذلك، المقاطعة «**حتى لا نترك أنفسنا نسمّر على صليب من الذهب**».

في الفصل الأول: «الإسلام ليس ديناً جديداً» يعنون بحثه بهذا ليشير بعد ذلك إلى أن الإسلام يقظة دينية، ثم يدخل في بحث توصيفي يخلص فيه إلى أن الإسلام يعني التوكل الإرادي والحر على الإله الواحد الأحد، وهو القاسم المشترك بين الأديان المنزلة يهودية مسيحية وإسلامية، مضافاً إلى الوحدة العميقة بين الإسلام والمسيحية مثلاً، التي نظّر لها في التجرد من «الأنا الصغيرة».

يمضي روجي غارودي في تحولاته المتسارعة في هذا الفصل من مراقب إلى سياسي إلى متصوف إلى مؤرخ، فأخذ يبسط الكلام في الحب الروحي والإلهي، في أدبيات المتصوفة من مسلمين ومسيحيين وغيرهم، من أبن عربي والقديس جان دولاكروا، وسبّستري، والقديسة تيريزا دافيلا، وروز بيهان الشيرازي وغيرهم؛ ثم وإذا به يتحدث عن الفنون في الأندلس فذكر شعراء من مثل ابن زيدون القرطبي، والمعتمد ملك اشبيلية الشاعر، وموسيقيين في قرطبة من مثل زرياب (العصفور الأسود) وغيره، ولم يوفر الحديث عن «الشواهد المذهلة» في جامع قرطبة، وقصر الحمراء في غرناطة «**وفي جامع قرطبة تجد الموسيقى التي أصبحت مرئية في الأعمدة والقناطر الصغيرة الحجرية... ففي هذا الفن، فن العمارة التي تتآلف فيها الهندسة والإيقاع والنور، إنما تتلخص رسالة الأندلس، رسالة العلم والحكمة، والجمال والحب والإيمان**».

وهكذا يذكر انتشار الإسلام الذي اعتبره «معجزياً»، وأن تطبيقه على كل مجالات الحياة، كان قد جعل الله حاضراً في كل فرد. ولم ينس الإشارة إلى التعارض بين الوحدانية والشرك في الأندلس، الذي يعود إلى ما قبل منازعات المسيحيين فيما بينهم بين عقيدة «المثلّثين» والاريوسيين الموحدين.

في المبحث الثاني من هذا الفصل «الإسلام ثورة اجتماعية» يبدأ بعرض مثال تاريخي عنونه: بانتشار الإسلام في أسبانيا، فيتحدث عن توجهات القرآن الاجتماعية الرئيسة، مركزاً على الجانب الاقتصادي في ذلك (تأسيس الزكاة، تحريم الربا، وإدانة كنز المال) مشيراً إلى علة هذه التوجهات القرآنية وأنها لتجنب تراكم الثروة في قطب دون آخر. الأمر الذي ساعد في اتصاف المسلمين الأوائل «بالمحررين» والمؤمنين الذين «يحترمون إيمان الآخرين وينعشونه في ضوء آخر الأنبياء»، وهو الشيء الذي دفع الشعوب لأن «تحتفي بالمسلمين».

وهكذا أخذ يفصل الكلام في عرض تاريخي لدخول المسلمين أسبانيا، مبرزاً ملامح الحضارة الإسلامية التي اتسمت بالازدهار الاقتصادي والعلمي والاجتماعي. ثم يخلص إلى أن الانتشار السريع للإسلام في أسبانيا لم يكن نصراً حربياً، بل يمثل بالنسبة للأغلبية الواسعة من هذا الشعب: يقظة دينية، وتطوراً اجتماعياً قابل المفهوم الروماني للملكية بمبدأ القرآن (الملك لله وحده)، وتحولاً ثقافياً «نهضة مع الله».

في الفصل الثاني يتحدث عن انحسار الإسلام، فذكر كمثال الأندلس والهند «**بدأ انحسار الإسلام بسبب فساد الأمراء الشرهين للسلطة والثروة، الذين جعلوا من الدين آداة قوة**»، مشيراً إلى مسؤولية

الفقهاء الساحقة في ذلك.

كيف بدأ الركود والتراجع منذ نهاية القرن الثاني عشر؟ تساؤل ساقه غارودي ليجيب عنه بذكر أسباب لذلك خارجية «تحطم مركزي الإشعاع الكبيرين للثقافة الإسلامية (بغداد وقرطبة)» وداخلية وهي الأسباب الرئيسة: «الحذر اللاهوتي من التجديد... الانطواء على الذات والعزلة والادعاء».

وهذا أدى برأيه إلى استئصال الروح العلمية المبدعة و«حركة الفكر العلمي ترتبط بحركة الفكر الديني».

ثم يمرحل غارودي كلامه في انحسار الإسلام إلى مراحل انحسارية ثلاث؛ الأولى: عندما أغلق باب الاجتهاد نتيجة الاستبدادية السياسية؛ الثانية: بعد النهضة الصفوية في فارس وحكم أكبر في الهند وإشعاع قرطبة بفعل بعض الخلفاء «قليلي الثقة بالإيمان الإسلامي الحر إذ جعلوا سلطتهم أكثر مركزية وأكثر استبدادية»، وفساد «التقليد»، و«التحجر»، و«علماء البلاط» الذي فصّلوا الشريعة بما يتناسب وإضفاء الشرعية على ملكية الخلفاء المطلقة؛ الثالثة: تمثلت بعد جهد جديد للفكر الديني الإسلامي من الأفغاني إلى إقبال بـ(الإسلاموية) «**الإسلاموية مرض الإسلام، كما الأصولية مرض الأديان كلها**».

يشير غارودي في ذلك إلى الأصولية وأنها «**الإدعاء بملكية الحقيقة وبالتالي وجوب فرضها على الجميع ولو بالحديد والنار**»، وأن الأصولية الأولى تمثّلت بالاستعمار الغربي، ويذكر بأن الثورات الثقافية من الصينية إلى الإسلاموية ما هي إلا ردود فعل على هذه «الأصولية الاستعمارية».

في الفصل الثالث (الإسلام الحي) يتحدث غارودي عن «نهضات رائعة» تلت الانحسارات التي سبق ذكرها من «حركة المعتزلة القوية» قبل «قمع الحنابلة»، إلى فكر الغزالي وابن عربي إلى من نهض من رجال أواسط قرن التاسع عشر ممن حمل مشعل: «قراءة جديدة للقرآن حية».

يبحث روجيه غارودي في هذا الفصل عن علل عدم مساهمة المسلمين في أي تقدم علمي كبير مستخلصاً بحزم أن المسؤول عن ذلك هم من بيدهم سلطات القرار الرئيسة: (سلطة الثروة، السلطة السياسية، السلطة الدينية)، وأن طريق النهضة إنما هو «**بترك الانطواء والانفتاح كإسلام البدء على الجميع**».

وكمحاولة منه للإسهام في تعبيد هذا الطريق، ونتيجة لتقديره الذي بدا عميقاً، واهتمامه بالقرآن، أخذ يبسط الكلام في مفاهيم رآها صنيعة من صنائع القرآن الكريم، مذكراً بما سبق أن أورده في ديباجة الكتاب من ضرورة قراءة القرآن بعيون حية لا بـ«عيون موتى».

نادى غارودي في هذا الفصل من الكتاب بالانطلاق من مبادئ الشريعة

المطلقة **«الله وحده صاحب الملك، الله وحده الأمر، الله وحده (العليم)... بهذا نبدع فقه القرن العشرين»**.

كما دعا إلى ضرورة فهم القرآن ككاشف عن قيم أبدية عندما أجاب بـ «الجواب النوعي عن مشاكل تاريخية محددة» للعيش «٢٤ ساعة يومياً في شفافية الله»، والى «استخلاص المبدأ الحي من الحرف الميت».

«فلا القرآن الكريم ولا السنة شرّعا في المطلق، إنهما أدليا بإجابة إلهية، ولكنها دائماً تاريخية ومشخصة، عن مشكلات مجتمع أقل تعقيداً من مجتمعنا».

وهكذا يمكن للإسلام بهذه الروح «أن يدلي بمساهمته في لاهوت التحرير».

في المبحث الثاني من هذا الفصل، يتحدث غارودي عن أمثال القرآن ورموزه كوسيلة من وسائل التعاطي الإيجابي مع القرآن الكريم الذي ذكره في المبحث السابق، **«القرآن يمنحنا مفاتيح قراءته الخاصة، مبادئ تفسيره»**.

وأخيراً في الفصل الرابع والأخير يتساءل عن أنه: **«كيف يمكن أن يتوطن إسلام حي في مستقبلنا»؟ «وماذا يعني تطبيق الشريعة»**؟

يستنكر في سياق محاولته الجواب عن ذلك على من جعل قلب الشريعة منحرفاً في خدمة السلطة، وهم بالدرجة الأولى (الحكام) الذين يجدون أنه من الضروري انحراف الشريعة طالما أنها تدعو إلى ملكية الله الواحد وتنبذ الاستئثار بالثروات و«تدين كل ضروب الفساد في السلطة» وفي النتيجة تحت عنوان «نحو حداثة أخرى تمنح الحياة معنى» يرى أن تطبيق الشريعة لتوطين إسلام حي في المستقبل، يكون بالانطلاق من روحية القرآن التي تهيئ للإسلام الشروط المناسبة لانتشاره، بقدر ما كانت الشروط مناسبة لانتشاره في القرن الأول الهجري، انتشار الإسلام بأبعاده الكلية من الأسبقية في الحب، إلى البعد الاجتماعي، إلى البعد النقدي...

يختتم غارودي كتابه بجمل فأحسن ختامه:

«ومن اليسير على امرئ أن يسخر من هذه المنظورات المستقبلية:

أين الإسلام الذي تضفي عليه المثالية؟ أرنا إياه على خريطة العالم؟ والجواب البسيط: إنه ليس في أي مكان، إن لم يكن في كتاب وفي قلوب الملايين من الرجال والنساء... وتلزمنا مع ذلك الإرادة في أن نكون قلباً من هذه القلوب لنصبح لبنة متينة في بناء مستقبلنا المشترك».

وأخيراً ينتهي الكتاب ببيان تفصيلي بأعمال روجيه غارودي، والدراسات التي تناولته.